مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية
المجلد 15 العدد1 (السداسي الأول 2023م)
ص. 39- 60

بلاغة التصوير الفني لأحوال المنافقين في القرآن الكريم

The eloquence of artistic depiction of the conditions of hypocrites In the Holy Quran

د. سهام داوي*
جامعة الجزائر، كلية العلوم الإسلامية، مخبر الشريعة (الجزائر)
s.daoui@univ-alger.dz

تاريخ الاستلام: 2022/10/30 تاريخ القبول: 2023/03/14 تاريخ النشر: 2023/03/30

ملخص:

كان التصوير القرآني كان محلّ اهتمام الباحثين قديما وحديثا، وقد أبدع (سيد قطب) بنظرية "التصوير الفني في القرآن" حيث بيّن من خلالها وجوه التصوير وأدواته، ومهّد لنا الطريق للبناء عليها من أجل الوصول إلى نقطة أبعد في التعامل مع الموضوع القرآني بجمع شتات صوره حول النموذج المحدد، حيث تعدّدت الأحوال والمشاهد التي صوّرها القرآن الكريم، وانتقيتُ منها العروض المتعلّقة بأحوال المنافقين للاستقصاء والتحليل، وانطلقتُ في ذلك من إشكالية طرحتُها في شكل تساؤل عام، هو :"كيف نستثمر التصوير الموضعي في القرآن الكريم في بناء الصورة العامة لنموذج المنافقين المعروض في سياقات متعدّدة؟"

وحددتُ لهذه الدراسة هدفا رئيسا هو التصوير التكاملي" الذي استدعت المقامات نثر متعلّقاته، ويستدعي البناء الموضوعي جمع متفرّقه، بمنهج استقرائي تحليلي. قادني إلى نتائج مهمة في تقدير اضطراب هذه الفئة، وفضح دواخلها، والتحذير من خطرها.

الكلمات المفتاحية: البلاغة؛ القرآن؛ التصوير؛ المنافقون؛ التفسير.

* المؤلف المرسل

Abstract:

Qur'anic depiction was of interest to researchers ancient and modern, and Sayyid Qutb created the theory of "artistic photography in the Qur'an" through which he showed the faces and tools of depiction, and paved the way for us to build on them in order to reach a further point in dealing with the Qur'anic subject by collecting the diaspora of his images around the specific model, where the conditions and scenes depicted by the Holy Quran were numerous.

I selected from them the presentations on the conditions of hypocrites for investigation and analysis, starting from a problem that I posed in the form of a general question, namely: "How do we invest the topical depiction in the Holy Quran in building the general picture of the hypocrite model presented in multiple contexts?"

The main objective of this study was "integrative depiction", the maqams called for the prose of its belongings, and the objective structure calls for a sporadic collection, with an inductive and analytical approach. He led me to important conclusions in estimating the disorder of this group, exposing its insides, and warning of its danger.

Keywords :

1. مقدمة:

أحوال الناس شتّى، بفضل من الإيمان، أو بسبب من الصدود والعصيان، أبدع القرآن الكريم بفنّياته الراقية في تصويرها، وتمثيلها رأي العيان، ولقد اجتهد المفسّرون، والبلاغيون في استجلاء هذه الأحوال وقوفا عندها بالشرح والبيان، وسرحا بها في خفايا نفس الإنسان، على اختلاف في التقدير، وتباين في التفصيل، بين مراعٍ لمعاني الألفاظ، ومرامي التراكيب، وساعٍ للكشف عن أسرارها العجيبة في التشخيص والتوصيف على ما اثبتته نظرية التصوير الفني في القرآن الكريم، فلا أنسب من هذه العروض لتطبيقها، ولا أفسح من هذه الأساليب لسرح الخيال في خفايا النفوس، واستكشاف ما تجتمع عليه سياقات العرض من أوصاف ثابتة في كلّ صنف من أصناف الناس: المؤمن، والكافر، والمنافق، من صميم الاعتقاد القلبي، وتجلياته السلوكية.

وإنّ الدراسة البيانية للقرآن الكريم من الأهمية بمكان، على ايّ مستوى كانت، لما تقود إليه من حسن التفسير، وعمق التدبر، وتزداد أهمية بالخروج من الموضِعية إلى الموضوعية، بجمع أطراف الموضوع الواحد، وعرضها على بعضها تكوينا للصورة العامة من جزئيات تجاذبتها السياقات حيث انطلقتُ فيها من إشكالية مفادها:

"كيف نستثمر التصوير الموضعي في القرآن الكريم في بناء الصورة العامة لنموذج المنافقين المعروض في سياقات متعدّدة؟"

وإنّ الهدف الأساس لهذه الدراسة هو إماطة اللثام عن وجه بلاغي جديد في القرآن الكريم، والوصول بالاستقراء إلى بناء أركان الموضوع الواحد وتقديم تصوّر عام له. حيث اعتمدتُ في جمع شواهد هذا النموذج البشري على الاستقراء، مصحوبا بالتحليل، ومعتمدا في بعض المواضع على المقارنة لتوضيح الصورة بنقيضها.

2. مفهوم التصوير واساليبه في القرآن الكريم:

2-1 مفهوم التصوير:

جاء في لسان العرب:" الصورةُ في الشكل، والجمع: صوَر، وصُورٌ، وصِوَرٌ، وقد صوّرهُ فتصوّر، وتصوّرتُ الشيء: توهّمتُ صورته، فتصوّر لي، والتصاوير: التماثيل[1] "

فالمعنى يتراوح بين المشاهد والمتخيّل من الصور، وإنّ الذي يخدم ما نحن بصدد دراسته هو الثاني على ما يفصّله المعنى المصطلح عليه.

التصوير في الاصطلاح:

الصورة الأدبية تشمل في مدلولها الأسلوب والخيال، بما يتيح جعل المعقول محسوسا بتعبير لفظي، وأداء تشخيصي وتجسيمي مبناه على الاستعارات والتشبيهات والكنايات على سبيل المجاز، ومصطلح التصوير أبلغ من مصطلح الصورة، ذلك "أنّ الصورة غالباً تقع في دائرة الحواس، والتصوير أعم من الصورة فثمة أمور لا ترى بدقائقها ولكن بانعكاساتها"[2]

ولا يقتصر التصوير عن دلالة الكلمات فحسب، بل يتجاوز إلى مجال أرحب ليشمل اللون والخطوط والظلال وجرس الألفاظ[3]، ونغم العبارات والتخييل في سياق نصٍ متماسكٍ يستهدف في نهاية المطاف توليد الصورة، حيث يتجلى "في جرس الألفاظ، ليدلّ هذا الجرس على صورة معناه في بعض الأحيان، وليؤلف مع بعض الألفاظ إيقاعا[4] يناسب جوّ المشهد في جميع الأحيان.. ويتجلّى (أيضا) في اتّساق المشهد كلّه بألفاظه ومعانيه وجرسه وإيقاعه، مع السياق الذي يُعرض فيه، سواء جاء تعقيبا أو مقدّمة لبرهان، أو تأكيدا لقضية أو تثبيتا لإيمان"[5]

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، مادة (ص و ر)، 473/4.

[2]. قاوي، عبد الحميد، مفهوم الصورة الفنية في النقد الأدبي الحديث، مجلة الباحث، المجلد 07، العدد 02، جامعة الأغواط، الجزائر ص19.

[3]. الجرس في دلالته المتعلّقة بالتصوير الفني للعبارات هو: الإيقاع الصوتي الحاصل من التلاؤم بين كلماتها، وتوافق أصواتها، وحلاوة جرسها كذلك، فالجرس يكون في الحروف، والكلمات، والعبارات.

[4]. الإيقاع في معناه العام هو أن يوقع الألحان ويبيّنها.

[5]. سيد قطب، مشاهد القيامة في القرآن، ص47.

وإنّ واضع نظرية التصوير الفني في القرآن الكريم قد اسّس لها بما يغني عن طلب التعريف الاصطلاحي عند غيره، فاشتهر بين الباحثين ما قرّره من أنّ:" التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبّر بالصورة المحسوسة المتخيّلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم ترتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخصٌ حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية"[1]

يقول (محمد قطب) شارحا هذا المفهوم بين يدي بعض النماذج التطبيقية التي درسها:" إنّ التصوير الفني بدلالاته المصاحبة يعتبر أحد الأدوات التعبيرية المميزة في القرآن الكريم، فالتصويرُ يحيل المعاني المجردة والذهنية، والمشاهد، والمواقف، والوجدان.. إلى صور تنبض بالحركة بظلالها الحركية والصوتية واللونية، فتبدو شاخصة مُحسة – مؤثرة في النفس، بالغة غاية التأثير "[2]..

وهذا عماد الفكرة التصويرية كما جاء بها (سيد قطب)، منبّها إلى اكتساح هذا الأسلوب للنص القرآني باستثناء جزء يسير منه متعلّق بالأحكام، والقضايا العقدية الجدلية، حيث ربط كلّ العناصر التصويرية بما سمّاه "الصدق الفني" في مقابل "الصدق الواقعي"، ويؤدّي هذا الصدق الفني معنى جمال عرض الصور القرآنية، من حيث اختيار أجزاء الصورة أو المشهد أوّلا، ثمّ من حيث التركيب المتناسق لهذه الأجزاء مجتمعة بعد ذلك، والدقة الفنية في هذا الاختيار، وهذا التركيب، وهذه الصياغة، ومطابقة هذا كلّه لأحدث القواعد والأساليب الفنية في العرض، و"إنّ التعبير القرآني يرتقي بهذا الصدق الفني في رسم الصور والمشاهد القرآنية، وعرضها وإخراجها، حتى يفوق كلّ أساليب العرض الفني البشرية ـ مهما كانت بليغة ـ ويفوق أيّة محاولة بشرية في التعبير بطريقة التصوير، يتفوّق على كلّ ذلك، ثمّ يرتقي في هذا المجال حتى يبلغ الذروة في الإعجاز"[3]

[1] سيد قطب، التصوير الفني في القرآن الكريم، ص32.

[2] محمد قطب، القرآن الكريم والأداء التصويري في الحقائق والأحكام، ص24.

[3] الخالدي، عبد الفتاح، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ص246.

والقرآن في أدائه التصويري معجز بكل المقاييس الفنية. وهو في هذا المجال متفرد في بابه.. من حيث الأداء اللفظي والخيالي.. مما يجعلنا نقرر في وضوح لا لَبْس فيه أنه معجزة أدبية خارقة تحدى بها العرب قديمًا وحديثًا وإلى يوم الدين.

2.2 أساليب التصوير في القرآن الكريم:

الأداء التصويري ـ كما أسلفنا ـ هو عرض تخييلي، تحسيسي، ينقل المعقولات إلى ما تقع عليه الحواس بدلالة تصنعها كلمة محورية، أو جرس وإيقاع يؤثّر في الوجدان، أو ظلّ يصاحب المفردة بما تقرّر من إيحاءاتها المعهودة، مع تركيب مجازي يعتمد بالدرجة الأولى على الاستعارات والتشبيهات البديعة التي تسفر عن تشخيص وتجسيم فنّي يُنطق الجماد، ويحرّك الساكن. فباعتبار أصل الاستعارة في أصلها تشبيها، فإنّ دورها لا يخفى في فنية التصوير القرآني، بما تخدمه من تشخيص، وتجسيم، على سبيل تقريب المفاهيم الذهنية، وتحريك المشاهد الجامدة، وبثّ الحياة في العناصر المصوّرة، والمشاعر المخفية، "ومن ثمّ فإنّ كثيرا من الأفكار والاعتقادات لا تنفصل عن المجال الاستعاري الذي هو وسيلة للعقل وللخيال، وللتشخيص، وللتجسيم، في ارتياد آفاق جديدة للخيال والمعنى، بحيث تنتظم التجارب، وتتنوع وتتحرك، وتتّخذ اثوابا حية متحركة، وتتبدّى لنا الأشياء مجهولها وحاضرها أمامنا في عالم يتسم بالحركة والتجسيم[1] "

وهذا الذي ننطلق منه في آفاق التفتيش عن أجزاء الصور القرآنية الرّاسمة للمشاعر النفسية، والحالات البشرية، والمشاهد الدنيوية والأخروية، بما يحلّل ويدلّل على التكامل الدقيق، والتناسب العميق مع السياقات المتعلّقة بها، بما يخدم تارة التطوّر التصويري، إجمالا وتفصيلا، ويجنح تارة أخرى إلى تفريق المعاني توسيعا وإثراء. حيث نذكر من الأساليب التصويرية المستعملة في القرآن الكريم:

[1] محمد قطب، من جماليات التصوير في القرآن، ص82.

أوّلا: التشخيص:

التشخيص في اللغة: الأصل اللغوي للتشخيص هو مادة (ش خ ص)، وهي تعني البروز، والظهور[1]. ومنه أُخذ المعنى الاصطلاحي الأدبي، جاء في المعجم الأدبي: "التشخيص إبراز الجماد، أو المجرّد من الحياة، من خلال الصورة في شكل كائن متميز بالشعور والحركة والحياة[2]. "

التشخيص في الاصطلاح: هو خلع للحياة وتجسيمه على ما ليس من شأنه الحياة المجسّمة من الأشياء والمعاني والحالات النفسية، وهو كما قال (سيد قطب):" فنّ في القرآن كثير الورود فيما يعرضه من الصور يبلغ من الجمال مستوى رفيعا، بما يبعث من الحياة في الأشياء، فتنتفض شخوصا تأخذ من الأحياء وتعطي، وتجاوبهم بالحس والحركة والحياة"[3] ، وعرّفه بأنه "خلع الحياة على المواد الجامدة، والظواهر الطبيعية، والانفعالات الوجدانية، هذه الحياة التي قد ترتقي فتصبح حياة إنسانية، وتشمل المواد والظواهر والانفعالات، وتهب لهذه الأشياء كلها عواطف آدمية، وخلجات إنسانية.."[4] فتصوّر مظاهر الوجود، وظواهر الطبيعة على هذا الشكل الحيّ المتحرّك يضفي عليها الجمال، ويكسبها أنسا تقترب من مشاعرنا من خلاله، وتثير خيالنا بحركيّتها وما أُلصق بها من خصائص البشر، وهي صور كثيرة الحضور في النصّ القرآني، حفلت بالاستدلال بها كتب البلاغيين القدامى في باب المجاز، واعتبروها من اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة .

وإنّ الاستعارة هي الرافد الأساسي للتشخيص في القرآن الكريم، بما تنتزعه من متعلقات ما تُحال إليه الجوامد من شخوص حية متحركة، منفعلة، "فالألفاظ المستعارة ألفاظ موحية لأنّها أصدق أداة تجعل القارئ يحسّ بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه، وتصوّر المنظر للعين، وتنقل الصورة للأذن، وتجعل الأمر المعنوي ملموسا محسّا[5] ".

---

[1] لسان العرب، مادة (ش خ ص)

[2] جبور، عبد النور، المعجم الأدبي، ص67.

[3] مشاهد القيامة في القرآن، ص112.

[4] التصوير الفني في القرآن الكريم، ص61.

[5] بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، ص195.

ومن التشخيص القرآني المثير للحركة، والموحي بالطمأنينة ما جاء في القسم المتسلسل في سورة التكوير، وصولا إلى الليل المعسعس، والصبح المتنفس، حيث قال تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ ﴾[1] على سبيل إثارة التعظيم، والتدبّر في هاتين الآيتين الكونيتين المطّردتين في حياة الناس، بل والمقدّرتين لحياة الناس، باعتبار العدّ بالليل والنهار، واعتمادهما في حساب الأعمار، ولقد كان (سيد قطب) شديد التذوّق لفنّية هذا التشخيص الذي استعار للصبح التنفس من الكائنات الحية، حيث قال:" وأكاد أجزم أنّ اللغة العربية بكلّ مأثوراتها التعبيرية لا تحتوي نظيرا لهذا التعبير عن الصبح، ورؤية الفجر تكاد تشعر القلب المتفتّح بأنه بالفعل يتنفس، إنه ثروة شعورية وتعبيرية، ثورة جميلة بديعة رشيقة تضاف إلى رصيد البشرية من المشاعر وهي تستقبل هذه الظواهر الكونية بالحسّ الشاعر[2] "

ثانيا: التجسيم:

التجسيم في اللغة جاء في لسان العرب: "الجسم جماعة البدن، أو الأعضاء من الناس والإبل والدواب وغيرهم من الأنواع العظيمة الخلق، واستعاره بعض الخطباء للأعراض" .

قال (ابن السّكيت): تجسّمتُ الأمر، إذا ركبتُ أجسمه وجسيمه ومعظمه، ومنه تجسيم الشيء: صيرورته جسيما عظيما، والتجسّم: ركوب أجسم الأمر ومعظمه، والجسم ما ارتفع من الرض وعلاه الماء، والأجسم: الأضخم"[3]

وعليه فللتجسيم معنى حقيقي وآخر مجازي، فهو بمعناه الحقيقي مأخوذ من الجسم الذي هو البدن، أمّا المعنى الأدبي الفني فهو تحيّل الأمر المعنوي أو العرَض صورة معينة يرسمها الأديب في ذهنه، على وجه التشبيه والتمثيل والاستعارة.

التجسيم في الاصطلاح: هو "إبراز الماهية، والأفكار العامة، والعواطف في رسوم وصور وتشابيه محسوسة، هي في واقعها رموز معبرة عنها"[4]، فلا يخرج المفهوم عن تحويل المعقولات الذهنية إلى محسوسات متصوّرة قياسا على ما يشبهها في الواقع. أو يؤدّي المعنى المقرّب لتصوّرها.

---

[1] سورة التكوير الايتان 17 ـ 18.

[2] في ظلال القرآن، 3842/6.

[3] ابن منظور، لسان العرب، مادة (ج س م)، 99/12.

[4] جبور، عبد النور، المعجم الأدبي، ص59.

"فالتجسيم جزء من التصوير، لأن التجسيم يتضمن إسباغ المظهر الحسي على الشيء المعنوي، والتصوير يشمل تشبيه المعقول بالمحسوس، والمحسوس بالمحسوس، فهو مصطلح أعمّ، ويستخدم التصوير وسائل مختلفة كالحروف والأفعال والحوار وغير هذا، أما وسائل التجسيم الموجودة في البيان القرآني، فهي مفردات مستمدة من الطبيعة الجامدة، والطبيعة المتحركة"[1]

ويقوم التجسيم بالدرجة الأولى على التشبيه الذي يقرّب المعقول إلى الخيال عن طريق محسوس بربط المقارنات، "مع العلم أنّ هذا اللون يستمدّ عناصره من الطبيعة، من نبات وحيوان وجماد، وأنّ الصورة تمتزج امتزاجا كاملا بحيث يدور طرفا الصورة متّحدين لإبراز المعنى المطلوب وتقويته، فتصبح الصورة دقيقة، واضحة، أخاذة، كما تقوم الألفاظ بدورها في رسم ظلال الصورة وملامحها واشكالها وألوانها، وهو في النهاية يهدف إلى التأثير في النفس، كما يهدف إلى تمثيل الغائب حتى يصبح حاضرا، وتقريب البعيد النائي حتى يصير قريبا دانيا"[2] فالتشبيه من أدوات التصوير الحسي، وهو سرّ إعجازي في التعبير القرآني، بما تضمّنه من جمال لفظي، وتصوير حيّ متحرك، فتقرب المشاعر إلى الحواس، وتنقل الحقائق المجردة في صور محسوسة تقع عليها العين، سواء كان بسيطا أم مركّبا تمثيليا. كما تجلّيه الكناية بما يصرف المعنى إلى غير حقيقته مع القرينة الصارفة عن إرادة معناه.

.3. العروض القرآنية التصويرية لأحوال المنافقين:

1.3. تصوير أحوال المنافقين في الدنيا:

كثر ذكر المنافقين في القرآن الكريم، وبالأخص في القرآن المدني الذي خاطب مكوّنات المجتمع الجديد، وتحدّث عنها، بأصنافها المتساكنة في مدينة المصطفى ﷺ: المؤمنون، المنافقون، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، ذلك أنّ الكفار خلّفوا في مكة، وما حولها من بقاع الجاهلية، واستقبل المتقلّبون المتلوّنون الرّسول ﷺ في المدينة، مهادنين، ومخادعين حتى يضمنوا الولاءات، لمرض في قلوبهم، وضعف إيماني أهلكهم.

[1] أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، ص102.

[2] محمد قطب، من جماليات التصوير في القرآن الكريم، ص94.

ومن بديع التصوير الوصفي لحال المنافقين العام ما جاء في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦ ﴾[1]، حيث عُرضت قبلهم صفات المؤمنين، والكافرين، وكان مواتيا للسّياق إرداف ذلك بذكر صفات عديدة لهذه الفئة المتلوّنة، المخادعة، ببداية سردية لمواقفهم، وصولا إلى تقرير الصفة المناسبة لهم، وهي المتاجرة الضالة بإبطان عكس الظاهر، وادّعاء نقيض المعتقد، بتصوير حسّي غاية في التجسيم والتجسيد، أعطاهم صفة التاجر الساعي للربح بالمقايضة، فلئن كان الهدى يكلّفهم السّير في اتجاه واحد، فإنّ هذه التجارة توهمهم بالربح من الجهتين، والحظوة لدى الفريقين، ولكنهم قد استثمروا الذّمم في تجارة خاسرة، لم يضمنوا بها أيّ طرف، مع حرمان الهداية التي هي سرّ الفوز في الآخرة.

ولئن كانت الآية السالفة الذكر تصوّر الصنيع، فإنّ آية أخرى صوّرت الصراع النفسي الذي أقحموا أنفسهم فيه، فهم مخادعون بالعبادة، كسالى في الخلوات، تشتّتت بهم الولاءات، فخسروا خسرانا مبينا: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ١٤٣ ﴾[2]، فالخداع الذي يحرصون عليه واقع بهم، جاء في آية البقرة مردودا عليهم، وفي هذه الآية منسوبا إلى الله تعالى على سبيل المشاكلة لما يستحقونه من معاملة المثل التي تكون من الخالق لعباده أنكى، وأشدّ، لتصوّر الآية عبادتهم الظاهرة لمن حولهم من المؤمنين وهي الصلاة التي جعلوها ظاهرا بلا قلب خاشع، ولا جسد خاضع، رياء وخداعا، فلا هم لأدائها ينشطون، ولا على ذكر ربّهم فيها يحرصون، بنفسية مذبذبة، تعطي كلّ طرف وجها يليق به، واقعة بذلك في الضلال المبين. "وهذه لمسة أخرى من لمسات المنهج للقلوب المؤمنة، فإنّ هذه القلوب لا بدّ أن تشمئزّ من قوم يخادعون الله.. هذه القلوب تعلم أنّ الله سبحانه ـ لا يخدع ـ وهو يعلم السرّ وأخفى، وهي تدرك أنّ الذي يحاول أن يخدع الله لابدّ أن تكون نفسه محتوية على قدر من السوء، ومن الجهل، ومن الغفلة كبير. ومن ثمّ تشمئزّ، وتحتقر، وتستصغر كذلك هؤلاء المخادعين ـ الذين ـ لا يقومون إلى الصلاة بالشوق إلى لقاء الله، والوقوف بين يديه، والاتصال به، والاستمداد منه،

[1] سورة البقرة الآية 16.

[2] سورة النساء الآيتان 142ـ143.

إنما هم يقومون يراؤون الناس، ومن ثمّ يقومون كسالى، كالذي يؤدي عملا ثقيلا، أو يسخّر سُخرة شاقة. وكذلك هم لا يذكرون الله إلاّ قليلا.. وهي صورة كريهة لا شكّ في حسّ المؤمنين... وموقف الذبذبة، والأرجحة، والاهتزاز، وعدم الاستقرار والثبات في أحد الصفّين موقف لا يثير إلاّ الاحتقار والاشمئزاز كذلك في نفوس المؤمنين، كما أنه يوحي بضعف المنافقين الذاتي[1] ".

ويُصوّر حالهم أيضا في مستهلّ سورة قرآنية حملت اسمهم، حيث يقول تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾[2] "

وهو أوسع تصوير لأحوال هذه الفئة في السّلم والحرب، والخفي والمعلن، بدأ بما يُظهرونه للرسول صلى الله عليه وسلّم إقرارا برسالته، كذبا وزورا، ويكفي في ذلك أنه سبحانه وتعالى شاهد على كذبهم، وما ذلك إلاّ لأنهم اتّخذوا أيمانهم جُنّة، الجُنّة في لغة العرب هي الدرع التي يلبسها المقاتل كالقميص حول جسمه لتحميه من طعنات العدو، وتُصنع من الحديد[3] ، "فهذه الصورة تعني أنّ المنافق جعل من الأيمان الكاذبة التي يحلفها درعا حوله ليستتر بها جسمه فلا ينكشف لطعنات العدو[4] "

[1] سيد قطب، في ظلال القرآن، 784/2.

[2] سورة المنافقون الآيات 8.1.

[3] يُنظر/ ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (ج ن ن)

[4] .حفني، عبد الحليم، التصوير الساخر في القرآن الكريم، ص92.

وتتكامل عدّة مكونات بيانية في هذه الآية للوفاء بتصوير عميق للحالة التي وضع فيها المنافق نفسه تترّسا بالأيمان الكاذبة:

. فلفظ (اتخذوا) يشي بأنّ هذه الأيمان الكاذبة لم يفرضها عليهم واقع قاهر، ولم يقدهم إليها موقف حرج، وإنما اتّخذوها طواعية، ورغبة في خداع المؤمنين مع البقاء على ما هم عليه من التشكيك في الدين.

. ولفظ (الجُنّة) بدوره جاء ملائما أشدّ الملاءمة للصورة الموصوفة، فالمقاتل عادة يتّخذ الدرع الواقي في النزال الشديد فقط، وينزعها عند أمن العدو، أو خارج ساحة القتال، وإنما استعير هذا اللفظ لصنيع المنافقين لأنهم في حرب كذلك، ولكنها من نوع آخر، حرب نفسية يتترّسون فيها بالأيمان الكاذبة، ويحتمون بها من انكشاف ادّعائهم.

. أما العبارة (فصدوا) فهي تحمل المعنيين، إمّا بجعل الفعل لازما على معنى الميل والانحراف، أو متعديا على معنى منع غيرهم من الاتجاه إلى دين الله. وعلى كلا المعنيين يُحمل التفسير حكاية عن الحال، وعن الهدف، فليس بعيدا عنهم القصد إلى فتنة غيرهم في الدين.

ويأتي تعليل هذا الموقف في الآية الموالية، التي جاء فيها" (ذٰلِكَ) إشارةٌ إلى ما تقدمَ من القولِ النَّاعِي عليهِمْ إنَّهم أسوأُ الناسِ أعمالاً، أو إلى ما وُصفَ من حالِهم في النفاقِ والكذبِ والاستتارِ بالإيمانِ الصوريّ، وما فيهِ من مَعْنَى البُعْدِ مع قُربِ العهدِ بالمشارِ إليهِ لما مَرَّ مراراً من الإشعارِ ببُعدِ منزلتِهِ في الشرِّ، (بِأَنَّهُمْ) أي بسببِ أنَّهم (امَنُواْ) أي نطقُوا بكلمة الشهادةِ كسائرِ منْ يدخُل في الإسلامِ (ثُمَّ كَفَرُواْ)، أي ظهرَ كفرُهُم بما شُوهدَ منهم من شَواهدِ الكُفْرِ ودلائِلِه، أو نطقُوا بالإيمانِ عندَ المؤمنينَ ثم نطقُوا بالكفرِ عند شياطينهم، (فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم) }حتى تمرنُوا على الكفرِ واطمأنُّوا بهِ .. (فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ) حقيقةَ الإيمانِ ولا يعرفونَ حقيّتَهُ أصلاً[1]. "

[1] تفسير أبي السعود، 554/8.

وتُصوّر الآيتان المواليتان حالهم في حضرة النبي ﷺ، فهم يواجهونه بما يعجبه منهم من القول، ولكنهم قوم يكذبون ويتلوّنون، بل هم العدوّ المأمور بالحذر منه، فمن حالهم الصدّ المستكبر بحركات الرأس المصوّرة للتمرّد الذي هم فيه، وقد ذُكرت حركة الرأس في قوله تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُون" وإنّ التقاط هذه الحركة لرؤوس المنافقين وهي تميل وتنعطف يشير إلى ما تحمله نفوسهم من الاستهزاء والترفّع تجاه هذا العرض، وهنا يمكن الاستئناس في الكلمة (لَوَّوْا) بالتشديد على الواو مع تكرارها للإيحاء بهذا الموقف الشعوري[1]."

وحين يحذّر القرآنُ المؤمنين من اتّخاذ المنافقين أصدقاء خُلّص يسرّون إليهم بالمودّة يسجّل حركة المنافقين الدالّة على الغيظ في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ "[2] فيعرض النص في البداية نوايا المنافقين البغيضة وأحاسيسهم الغاضبة تجاه المؤمنين بأسلوب الوصف: "وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ البَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ"، بيد أنّ هذا البغض المضمر سرعان ما يصير من شدّته وفورانه غضباً عارماً لا يجد منفذاً للتفريغ، فيدور على المغتاظ نفسه فيرغمه على توجيه العدوان إلى ذاته في حركة عنيفة تتمثل في عضّ أنامله "وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الغَيْظِ"، وتهدف إضافة الضمير إلى الغيظ في قوله: "قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ" إلى رسم صورة نفسية ساخرة تربط هذا الانفعال النفسي بالمنافقين في ربقة لا فكاك لهم عنها، ويلحظ أن النص يصوّر أكثر من انفعال (الحسد، البغض، الغضب)، وهذا الامتزاج في الانفعالات يسمّى في الدراسة النفسية بالانفعال المركّب، وهو يدل على تأزم الموقف وتعقيده ممّا يثير في الإنسان انفعالات عديدة في آنٍ معاً[3] "

[1] حكمت صالح، جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم، ص132.

[2] سورة آل عمران الآيتان 118.119.

[3] حفني، عبد الحليم، التصوير الساخر في القرآن الكريم، ص99.

وما هذا الحال المخزي إلاّ لتردّدهم بين الإيمان والكفر، وعدم رسوّهم على أحدهما، ونحوه قوله تعالى: ﴿ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ ﴾"[1] أي وظهر كفرهم بعد أن أسلموا بما قالوا، وما فعلوا، وهو كثير .

وحفلت سورة "التوبة" أيضا بتصوير أحوال المنافقين، وما كان منهم من مواقف تعكس خبث سرائرهم، حيث بيّنت حالة الجبن التي تصيبهم عندما يدعون إلى التفير، في الآية الكريمة: ﴿ لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ٥٧ ﴾"[2]، ففضح التصوير هذه الطويّة، وهذا الخلق المشين، من خلال عرض الملاذات التي تناسبهم للفرار والاختباء، لجوءا إلى ملجأ يأوي، أو مغارات تثوي، أو حتى مدَّخلا يغيذب عن الأنظار، وكلمة (مدّخلاً) صوّرت حالة هذا الغار الذي يفرون إليه بأنه شديد الضيق، بحيث يدخلونه بصعوبة، ومع ذلك يفضّلونه على الاستجابة لداعي النفير، "فحركة النفس والقلب تبرزها في حركة جسد وعيان ومشهد متكامل: فتصور المنافقين وهم يبحثون عن أي شيء يمنعهم من المؤمنين، مخبأ يحتمون به ويأمنون فيه، حصنا أو مغارة أو نفقا، أو أيّ شيء، إنهم مذعورون مطاردون، وتصوّر حال المخبأ الذي يهربون إليه عند الشدائد، فهو مكان ضيّق غاية الضيق، بحيث يدخلونه بغاية العسر والصعوبة، فهم يُدخلون أنفسهم فيه، أو يدخلهم الخوف فيه يطاردهم الفزع الداخلي والجبن الروحي[3] "

ومن تصوير أحوال المنافقين في هذا السياق ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٢٧ ﴾"[4] . فالنظرة هنا شيفرة متبادلة بين المنافقين في المجلس الإيماني، انزعاجا من نزول الوحي، لينسحبوا حتى لا يسمعوه، ولا يُحسب عليهم، مع إيحاءات تحملها هذه النظرة المتبادلة تواطؤا على استغفال الحاضرين حتى لا يشعروا بهم، فخوفهم يظل قائما من نزول قرآن يفضحهم، ومكوّنات هذه الصورة إذن:

إذا ما أنزلت سورة . أي شهود نزول الوحي في حضرة المصطفى ﷺ .

---

[1] سورة التوبة الآية 74.

[2] سورة التوبة الآية 57.

[3] أمال خميس حماد، أثر القراءات القرآنية العشر في التصوير الفني في القرآن، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد 30، حزيران، 2013م، ص376

[4] سورة التوبة الآية 127.

نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد: أي ردّ الفعل المضطرب.

ثمّ انصرفوا: وهي النتيجة الختامية للمشهد، ومخرج الموقف الحرج الذي يجدون فيه أنفسهم، تسللا على نحو لا يثير الريبة والشكوك في أمرهم، فالتراخي والتعاقب واضح من خلال الأداة (ثمّ).

ولا أفضح لحال المنافقين المخزي من الموقف في الغزوات، حيث يصوّر القرآن ما يثيرونه من فتنة التعطيل، والتوهين في مواضع متفرّقة منه، منها ما تعلّق بغزوة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿ ۞ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ١٨ أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ١٩ يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ٢٠ ﴾"[1] ، وهذه الصورة جامعة لمعاني كثيرة من التذبذب والتردّد والخوف، والتخويف معا، فهي "صورة للجبن والانزواء، والفزع والهلع، في ساعة الشدّة والانتفاش، وسلاطة اللسان عند الرخاء، والشحّ على الخير، والضنّ ببذل أيّ جهد فيه، والجزع والاضطراب عند توهّم الخطر من بعيد[2] "

وفي ذات السياق، نجد تصويرا للتثاقل عن الجهاد، والتثبيط فيه، جاء قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ٧٢ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمَۢا ٧٣ ﴾"[3] ، وهو تصوير منفّر للمبطّئين المثبطين للعزائم، في وقت التشمير على سواعد الجهاد، تحوّلا من حال إلى حال لتحصيل المنافع، فليس هدفه نصرة الدين على أعدائه، ولا انتصار المسلمين في أرض المعركة، وإنما حيث سارت ريح الغنائم يسيرون. ويرسم جرس العبارة "ليبطّئنّ" صورة واضحة للتبطئة، "فاللفظة مختارة هنا لما فيها من ثقل وتعثّر، وإنّ اللسان ليتعثّر في حروفها وجرسها، حتى يأتي على آخرها، وهو يشدّها شدّا، وإنها لتصوّر الحركة النفسية المصاحبة لها تصويرا كاملا بهذا التعثّر والتثاقل في جرسها[4] "

---

[1] سورة الأحزاب الآيات 18 ـ 20.

[2] سيد قطب، في ظلال القرآن، 2840/5.

[3] سورة النساء الآيتان 73.72.

[4] سيد قطب، في ظلال القرآن، 705/2.

ومن فرط نفاقهم، وقدرتهم الفائقة على الجمع بين المتناقضات نفسيا وسلوكيا، يتوهّمون وقوع النقيضين في حقّهم، فيكفرون، ويثبّطون، ويتراجعون عن العون عند الحاجة إليهم، ويظنّون أنهم غير مؤاخذين على ذلك، بل يذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك بإنكار البعث بعد الموت، إذ يتحدّث القرآن الكريم عن استبعاد بعض المنافقين لقدرة الله أن يردّهم أحياء بعدما كانوا عظاماً يابسة، ورُفاتاً بالية برصد حركة تُنبئ عن أعماق قلوبهم، فيقول: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ٤٩ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ٥٠ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ٥١ ﴾"[1] "إنّ هذه الحركة المكنونة في لفظ (فَسَيُنْغِضُونَ) والتي تعني "تحريك الرأس نحو الغير"، تصوّر بدقة ما يداخل نفوس المنافقين من سُخرية وكبر واستنكار حين يأتيهم الجواب بأن الله الذي أنشأهم أوّل مرة قادرٌ على أن يردهم إلى الحياة، وكأنّهم بحركتهم تلك يكشفون النقاب عن نفوسهم الساخرة غير آبهين بما يقوله الرسول ﷺ عن البعث بعد الموت، لأنه . في زعمهم . أمرٌ لا يصح ولا يعقل، فيكون هذا الإحساس الخاطئ أدعى لإثارة السخرية في نفوسهم، وفي الجار والمجرور (إليك) تمثيل لهذه الحركة في وجه الرسول الكريم ﷺ، وبذا تغدو الصورة المتحركة ماثلة للعيون بكلّ أبعادها وحاضرة في الذهن بكل خطوطها، كما أن ملامح الصورة اكتملت بفضل الحوار الذي يعبر أيضاً عن استهزاء المنافقين واستبعادهم لمجيء هذا اليوم العظيم[2]. "

ويدقّ التصوير مع الانتقال من توضيح خفايا النفس إلى بيان عاقبة صنائع هؤلاء الذين يراؤون بأعمالهم، ولا يبتغون وجه الله تعالى، حيث جاء في شأنهم خطاب تحذيري موجّه للمؤمنين في قوله عزّ وجلّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤ ﴾"[3] ، فليس المنّ بالصدقة إلاّ من شيم المنافقين المرائين الذين لا يبتغون بها وجه الله تعالى، وإنما يهمّهم من صدقاتهم كسب الصيت، ورفعة المنزلة بين الناس، ويرتكز هذا التصوير على تشبيه

[1] سورة الإسراء الآيات 51.49.

[2] تصوير الانفعالات النفسية في القرآن الكريم، 43/1.

[3] سورة البقرة الآية 264.

مقرّب للحسّ ما قد لا يقدّره التصوّر الذهني قدره، فمثله معقود المعنى على لفظين دقيقين (صفوان)، و(صلدا)، والأوّل بمعنى الحجر الأملس، بينما الثاني يدقّ بمعناه إلى الحجارة الملساء التي لا تبقي ترابها على سطحها، فلا ينبت عليها شيء، فالقلب قاس، ولا يُرجى منه نتاج طيب، و"ثمّة حركة هادرة تشمل وجهين من الصورة.. صورة المنفق في حركته المتعالية الغرور، وحركة المطر الشديد الذي يتساقط فيأخذ البصر، كما تأخذ حركة المرائي العين، ويتضادّ مع الحركة سكون قابع يتّسم بالجمود والهمود والبلادة، في جوف المرائي قلب ينبض، ولكنه في الحقيقة جامد ساكن لخلوّه من الإيمان، فهو معطّل لا يتأثر بحركة الفعل، كما أنّ حجر الصنوان جامد هامد لا يتأثّر بحركة المطر، ولا يتشرّب قطرة واحدة، ولا تتأثّر مسامه بوابل المطر المنهل"[1] فلا قلوب هؤلاء تشبه قلوب المؤمنين المخلصين لله في كلّ صنيع، ولا صدقاتهم تُحفظ ولا تُدّخر لهم في يوم الحساب العظيم، لأنها لم تجد أرضا ثابتة تتراكم عليها، بل منزلق يطردها بقوّة التمحيص.

ويجلّي التصوير بالخُلف تمثيل مقابل لحالة المؤمنين الذين نفعهم إخلاصهم في الصدقات، والتي كانت متاحة لهؤلاء المنافقين لو أنهم لم يراؤوا بصدقاتهم، في قوله تعالى بعدها مباشرة: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥ ﴾"[2]، ففي مقابل الحجر القاسي، والملمس الأملس المضيّع لما فوقه، نجد لفظ (الجنة) التي تفيد في الحالتين، إما بوابل يؤتي أكلها ضعفين، أو بدونه فتعطي ما ينفع، لأنها في أصلها معطاءة، مهيّأة بخصوبتها، واستعداداتها الكامنة لإخراج الثمرة الطيبة ولو برذاذ المطر، وشحيح الرزق، أمّا إذا كان الرزق حاضرا، فالعطاء بالتأكيد يتضاعف، "إنه المشهد الكامل المتقابل المناظر، المنسّق الجزئيات، المعروض بطريقة معجزة التناسق والأداء، الممثّل بمناظره الشاخصة لكلّ خالجة في القلب، المصوّر للمشاعر والوجدانات بما يقابلها من الحالات والمحسوسات، الموحي للقلب باختيار الطريق في يسر عجيب[3] "

[1] من جماليات التصوير في القرآن الكريم، ص48.

[2] .سورة البقرة الآية 265.

[3] سيد قطب، في ظلال القرآن، 309/1.

ولا يغيب التصوير التمثيلي المستند على التشبيه في تقريب حال المنافقين للأفهام، حيث ذُكر لهم في سورة "البقرة" مثلان:

الأوّل: في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[1]

والثاني: في قوله: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾[2]

فالمثل الأوّل مضروب بخصوص بحثهم عن النور، وعدم انتفاعهم به، لأنهم لم يحسنوا التعامل معه، وجعلوا الهوى سيّدا، فالمنافق يستضيء بنور الحق، "ولكن ما أن يبدو النور حتى يصاب بالعمى بسبب الهوى الذي يسيطر على قلبه، فيضيء النور ما حوله، ولا يستضيئ به، وهو الذي استوقد النار"، فقد عطّلوا حواس الإدراك، وكانوا صمّا عن سماع الحق، بكما عن النطق به، عميا عن إبصاره، فلا سبيل بذلك لانعدالهم، واستقامتهم. "وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثمّ كفروا، ولذلك ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات الشك والكفر والنفاق، لا يهتدون إلى سبيل خير، ولا يعرفون طريق النجاة[3] "

وتمثّل الآية الثانية الموقف تمثيلا قويّا، برسم حسي لحيرتهم وتردّدهم، حيث تشبههم بقوم نالهم صيّب من السماء، فيه ظلمات ورعد وبرق، فأثار الهلع والخوف فيهم، وسبب لهم الاضطراب، والفوضى في حركات يائسة لا مفرّ لهم بها من قضاء الله النازل، "فالصواعق تدعم المكان، وتصيب القوم بالفزع والخوف والدويّ الهائل، وتتحرّك أيديهم حركة تلقائية إلى الأذان، في اضطراب وخوف، تحاول أنم تمنع العذاب المنتظر، أو تقلّل من حدّة الصوت وصخبه، وكادت الأصابع تتداخل في أعماق الأذن حتى تخترقها، إنهم من الخوف مزلزلون، يأتيهم الموت مظلما، وراعدا، وبارقا، وكأنهم ينتظرونه، فهم واقفون تحت مشيئته... وفي هذا تصوير لنفس منافقة، تائهة، فارغة، لا تستقرّ على حال، ولا تطمئنّ إلى قرار... إنهم مضطربون لأنهم لا يؤمنون، فالإيمان طريق الطمأنينة والسكينة"[4] ، لقد وقعت

[1] سورة البقرة الآيتان 17.18.

[2] سورة البقرة الآيتان 19.20.

[3] أبو زهرة، محمد، القرآن المعجزة الكبرى، ص253.

[4] محمد قطب، من جماليات التصوير في القرآن الكريم، ص106.

حركتهم في شلل مستمر، وفعل متأرجح مرتبط بظهور البرق واختفائه، يصوّر بدقة متناهية حالة التذبذب التي سبقت الإشارة إليها، و"إنّ هذه الحركة في المشهد لترسم عن طريق التأثّر الإيحائي حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التي يعيش فيها أولئك المنافقون.. فهو مشهد حسّي يرمز لحالة نفسية، ويجسّم صورة شعورية، وهو طرف من طريقة القرآن العجيبة التي تجسّم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس[1] "

فإذا كانت الصورة الأولى يكشف حالهم في طلب الدليل وعدم الأخذ به لغلبة الهوى، وسيطرة الشهوة، فإنّ الصورة الثانية تنقل حالهم المضطرب، وهلعهم المستمر، لدواخلهم المشوّشة التي لا تعرف الاستقرار ولا الأمان، فهم في تيه واضطراب، وقلق وأرجحة بين أن يكونوا كالمؤمنين، أو يميلوا إلى الكافرين، بين ما يطلبونه من نور، وما يجذبهم ويسيطر عليهم من ظلام.

ونختم ما قدّمنا من العروض القرآنية التصويرية لأحوال الناس بآية كريمة، أنكرت على البشر عنادهم، وكفرهم وهم في أحوالهم إمّا موتى معطّلون، أو أحياء مفتونون، جاء فيها: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ "[2]، فكيف يتجرّأ هذا الإنسان الضعيف الموجود بعد عدم، المبعوث بعد موت، بلا حول ولا قوّة منه، على الكفر بالله تعالى، وجحود فضله عليه؟ "في هذا المشهد القصير ذي المقاطع الأربعة، يُعرض سجلّ الحياة كلّها ويُطوى، وتُعرض صورة البشرية في قبضة الباري سبحانه، فقد عرض في هذا المشهد الموت الذي سبق الحياة، فالحياة، فالموت الذي تُختم به الحياة، فالحياة بعد الوفاة. والموت الذي سبق الحياة آزال، والحياة التي تلته آماد، والموت الذي يعقبها آباد، تنظري جميعها في ألفاظ، ليعرض جانب السرعة، ولكن يمتدّ بها الخيال في الاستعراض ليقول: إنّ هذه الآماد الطويلة كلّها قصيرة في اليد الكبرى"[3].

[1] سيد قطب، في ظلال القرآن، 46/1.

[2] سورة البقرة الآية 28.

[3] سيد قطب، التصوير الفني في القرآن الكريم، ص108.

2.3. تصوير أحوال المنافقين في الآخرة:

ليست أحوال المنافقين بالأحوال المرضيّة عند الله تعالى، ذلك أنهم آذوا المؤمنين بموالاة أعدائهم، وآذوهم ببثّ الشائعات والقلاقل بينهم، وآذوهم بالتثبيط وقت العزم بالنفرة إلى الجهاد، وآذوهم خلال ذلك بشقّ الصفوف، وآذوا قبل ذلك أنفسهم بالمكر والخداع الذي انقلب عليهم، وبما ينتظرهم من سوء المآل بين يدي الله تعالى، فهم بصريح الآيات "**في ضلال بعيد**"، وكفر، يفضي بهم إلى الدرك الأسفل من النار، وقد تكامل تصوير مآلهم بين الآيات الآتية: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾"[1]

"﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ "[2]

وإنما حُدّد مكانهم في الدرك الأسفل من النار تصويرا لمصير مخزٍ يكاد يكون اشقى من مثير الكافرين الذين لم يدّعوا الإيمان، ولم يمارسوا طقوس الإسلام يوما، "إنه مصير يتفق مع ثقلة الأرض التي تلصقهم بالتراب، فلا ينطلقون، ولا يرتفعون، ثقلة المطامع والرغائب، والحرص والحذر، والضعف والخور.. الثقلة التي تهبط بهم إلى موالاة الكافرين ومداراة المؤمنين، والوقوف في الحياة ذلك الموقف المهين "مذبذبين في ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء" فهم كانوا في الحياة الدنيا يزاولون تهيئة أنفسهم وإعدادها لذلك المصير المهين "في الدرك الأسفل من النار"، بلا أعوان هنالك ولا أنصار"[3]، فهم من طينة خاصة، لعبت على الحبلين، وخدعت المؤمنين بإظهار عكس ما تبطن، وكانت من معاول النبش والهدم في المجتمع المسلم، لذلك استحقت عذابا اليما، وخزيا عظيما في الدرك الأسفل من النار.

والصورة الأشمل لكلّ ذلك، ممّا يكون من مشهد تقلّب الأيام، وكرّ الأعوام، والانقلاب إلى المصير المحتوم للوقوف أمام صنيع اليدي يجلّيها قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾"[4] ، وكأنّ حياة البشرية التي يغترّ فيها الغافلون فيجحدون، ويظلمون، ويستكبرون مجرّد شريط ذي مقاطع يعقب بعضها بعضا، فما هي إلاّ صحو ومنام، وموت، وبعث، وحشر وحساب في تسلسل حتمي يفضي إلى الإشهاد على الأعمال.

[1] سورة النساء الآية 138.

[2] سورة النساء الاية 145.

[3] في ظلال القرآن، 785/2.

[4] سورة الأنعام الآية 60.

ولعلك تلاحظ أنّ عرض أحوالهم في الدنيا قد استغرق مواضع شتى من القرآن الكريم، فضحا، وتشخيصا، وتحذيرا، وتهديدا ووعيدا، بينما لم يكادوا يُخصّصون بالذكر في المآل إلاّ قليلا، باعتبارهم في الدرك الأسفل من النار، وأنّ لهم عذابا أليما، ذلك أنهم مع الكفار في العذاب مشتركون، وأنه يصيبهم ما اصابهم مما يفزعهم، ويؤلمهم، ويهينهم، ويغشاهم من كلّ مكان بما كذبوا الله تعالى ما وعدوه، وبما شقّوا من صف المسلمين، وبما خانوا، وبما غدروا، وبما اقترفوا في حق هذا الدين.

خاتمة:

القرآن في أدائه التصويري معجز بكل المقاييس الفنية. وهو في هذا المجال متفرد في بابه.. من حيث الأداء اللفظي والخيالي.. مما يجعلنا نقرر في وضوح لا لَبْس فيه أنه معجزة أدبية خارقة تحدى بها العرب قديمًا وحديثًا وإلى يوم الدين. ولئن كان منطلقنا في هذه الدراسة هو ما جاءت به نظرية التصوير الفني لسيد قطب، فإننا رأينا زاوية لم تُعط حقها من البحث والتدليل، هي جما تعدّى الموضوع إلى الموضوع، وما بنى من الجزئيات صورة كاملة شاملة، مما يصلح أن نطلق عليه "التكامل التصويري"، وأن نعدّه من دلائل بلاغة القرآن الكريم، بنماذج عروض أحوال المنافقين في الدنيا والآخرة، على ما تجاذبته السياقات، وجمعته الصورة الكلية والموضوع الواحد، لنحسن تشخيص الحالات، وبناء الأحكام على هدى من القرآن الكريم.

وقد خرجتُ من هذا التحليل البلاغي لآيات عرض أحوال المنافقين بنتائج مهمة، أبرزها:

. التصوير أداة قرآنية بلاغية بامتياز، تحيل المعقول إلى محسوس، وتعطي الحالة النفسية والميزة الأخلاقية تشخيصا تخييليا، يُدرس في إطار سياق الموضع، ويُعرض على بعضه لبناء الفكرة العامة، والحكم المستغرق لمكونات الصورة.

. نال التصوير المتعلق بأحوال المنافقين في الدنيا حيزا واسعا غلب عليه التشبيه لتقريب حالهم من الأفهام، وفضح شخصياتهم المتذبذبة التي لا تثبت على حال.

. صور العذاب وأحوال أهلها أخذت زوايا شتى للعرض بما يكون من الخسران، وما يحصل من الندم، وما يحدث من خذلان الحواس. وأُلحق فيها المنافقون بالكافرين لأنهم أبطنوا ما اشتركوا فيه معهم.

وعلى ضوء ذلك نوصي الباحثين والمهتمين ببلاغة التصوير في القرآن الكريم بالخروج من نمطية عرض النظرية وسوق شواهدها، إلى رحاب فتح ابواب جديدة لبيان دورها في الوحدة الموضوعية، وإحكام العروض باستدعاء ما فرّقته المناسبات السياقية إلى حضرة المشترك الهادف إلى بناء العام على الجزئي.

قائمة المصادر والمراجع:

- **المؤلفات**:

- ✓ بازمول، محمد بن عمر، **القراءات وأثرها في التفسير والأحكام**، ط1، أطروحة دكتوراه، دار الهجرة، الرياض، 1996م
- ✓ بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، 1973م
- ✓ جبور، عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1979
- ✓ حفني، عبد الحليم، **التصوير الساخر في القرآن الكريم**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م.
- ✓ الخالدي، عبد الفتاح، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، دار الفاروق، الأردن، الطبعة الأولى، 2016م
- ✓ الخطيب، عبد الكريم، **التفسير القرآني للقرآن**، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.
- ✓ الرازي، فخر الدين، **مفاتيح الغيب**، ط1، دار الفكر، دمشق،1981م.
- ✓ الزمخشري، أبو القاسم، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل**، د3، دار المعرفة، لبنان، 2009م.
- ✓ أبو زهرة، محمد، **القرآن المعجزة الكبرى**، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، لبنان، دون تاريخ.
- ✓ أبو السعود ، محمدالعمادي، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ✓ سيد قطب، **التصوير الفني في القرآن الكريم**، ط17، دار الشروق، القاهرة، 2004م.
- ✓ سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ط32، دار الشروق، القاهرة، 2003م
- ✓ سيد قطب، مشاهد القيامة في القرآن، دار الشروق، القاهرة، الطبعة السادسة عشرة، 2006م
- ✓ سيد قطب، **التصوير الفني في القرآن الكريم**، ط16، دار الشروق، 2006م.
- ✓ ابن فارس، أحمد، **مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، 1979م.
- ✓ ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، محمد االدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.
- ✓ ياسوف، أحمد، جماليات المفردة القرآنية،دار المكتبي، دمشق، الطبعة الثانية، 1419ه

المقالات:

- ✓ أمال خميس حماد، أثر القراءات القرآنية العشر في التصوير الفني في القرآن، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد 30، حزيران، 2013م
- ✓ حكمت صالح، جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم، روافد، الكويت، الإصدار 33، 2010م.
- ✓ صالح ملا عزيز، تصوير الانفعالات النفسية في القرآن الكريم: دراسة فنية، قسم اللغة العربية، جامعة صلاح الدين.
- ✓ قاوي، عبد الحميد، مفهوم الصورة الفنية في النقد الأدبي الحديث، مجلة الباحث، المجلد 07، العدد 02، جامعة الأغواط، الجزائر
- ✓ محمد قطب، القرآن الكريم والأداء التصويري في الحقائق والأحكام، دار العلوم، ديوباند، العدد 5.4، السنة 34، مارس/مايو2010م
- ✓ محمد قطب، من جماليات التصوير في القرآن الكريم، سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، السنة التاسعة، العدد 99، العام 1990م.